

فتح القدير

قوله : 21 - { وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا } لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجة وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسع عليهم في الأرزاق وأدر عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضراء بالجذب وضيق المعاش فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها وإذا الأولى شرطية وجوابها إذا لهم مكر وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال : { قل الله أسرع مكرا } أي أعجل عقوبة وقد دل أفعال التفضيل على أن مكرهم كان سريعا ولكن مكر الله أسرع منه وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر : أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز : { إن رسلنا يكتبون ما تمكرون } قرأ يعقوب في رواية وأبو عمرو في رواية { يمكرون } بالتحية وقرأ الباقر بالفوقية والمعنى : أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفي هذا وعيد لهم شديد وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها فإن مكرهم إذا كان ظاهرا لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي { وإذا مس الإنسان ضر } وفي هذه زيادة وهي أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر